المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 - Electronic ISSN 2790-1254
العدد 18A2 2025 تشرين1
No. 18A2 2025 October

جمال التصوير في كتاب (الأيام) لطه حسين "دراسة تحليلية"

م.م. عقيل عبدمسلم هاشم
كلية التربية-جامعة القادسية
م.د. مروة عبد الخالق بدري
كلية التربية-جامعة القادسية

ملخص البحث

تناول هذا البحث (التصوير) عند طه حسين، بوصفه مصطلحاً أدبيا ابداعيا تخييلياً، يصور ما يجول في مخيلة الكاتب من أحداث وشخوص وأمكنة وغيرها، يسردها الكاتب في أحداث ومواقف متنوعة، تدل على براعته وفهمه للحياة، وما يمر به من خواطر، تجعل في بنائه الأدبي والفني دليلاً على وعي كاتبه، فهو ليس سرداً لما كان من حياته فقط، بل انما هو ينقل سيرة ذاتية حملت معها هموماً اجتماعية، وثقافية أراد صياغتها بشكل تصويري واقعي؛ تقريباً وفهماً لمقتضيات الحياة العامة والخاصة، ولكن بأسلوب ادبي قصصي هادف ومألوف، يقترب كثيراً من ذلك الواقع.

الكلمات المفتاحية: التصوير، الحياة، الفتى، البطل، شيخنا، سيدنا، المكان والزمان.

The Beauty of Photography in Taha Hussein's Book (Al-Ayyam): An Analytical Study

A.L. Aqeel Abdulmuslim Hashim
College of Education, University of Al-Qadisiyah
L. Dr. Marwa Abdulkhaliq Badri
College of Education, University of Al-Qadisiyah

Research Summary

This research addresses (imagery) in Taha Hussein's work, considering it as a literary, creative, and imaginative term that depicts what goes through the writer's imagination of events, characters, places, and others. The writer narrates these in various events and situations, reflecting his skill and understanding of life, as well as the thoughts he experiences, making his literary and artistic construction evidence of his awareness. It is not merely a narration of his life, but rather a transfer of an autobiographical account carrying social and cultural concerns that he aimed to shape in a realistic pictorial form; an approximation and understanding of the requirements of public and private life, but in a purposeful and familiar literary narrative style that closely approaches that reality.

Keywords : Imagery, life, the boy, the hero, our sheikh, our master, place and time.

المقدمة

الحمد لله فاطر السماوات والأرض، المنعم المتفضل، الذي لا تعد نعمه، وأفضل الصلاة وأتم السلام على أشرف خلقه محمد، حبيبه ونجيبه، وآله الطيبين الطاهرين، الهداة المهديين ...

يعد طه حسين من العقول الفذة، والأعلام التي يشار اليها بالبنان، الذي شغل بمصنفاته الألباب الواعية، واثار ببعضها جدلا طويلا؛ لأنه جاوزها الى ما يُشك به من أفكار بعيدة المعنى والمراد. ومن هذه

المصنفات التي شغلت حيزا كبيرا من الساحة الأدبية والنقدية ليومنا هذا، كتابه (الأيام)، الذي تمت دراسته من الزاوية الجمالية التي نظر فيها الى بنية هذا الكاتب، من وجهة النظر الجمالية التصويرية، فضلاً عن الأفكار الجمالية النفسية لدى البطل في ثنايا هذا الكتاب.

من هنا جاءت فكرة دراسة(جمال التصوير في كتاب الأيام) بما تدل عليه لفظتا الجمال والتصوير في الدراسات النقدية القديمة والحديثة، بما معناه مدى قدرة الكاتب على تصوير شعوره وتجسيده على الورق، وبالتالي مدى قدرة المتلقي على قراءة هذا المكتوب بتجلياته النفسية أو الشعورية، فالأدب مرآة الشعور، لا يولد الا بوجود جماله، ولا يموت الا بموت الجمال والابداع فيه.

مشكلة البحث

يحاول البحث إيجاد مساحة بيّنة بين وصف السيرة الذاتية للبطل، بأنها مذكرات تاريخية راسخة في ذهن صاحب السيرة؛ لتحويلها الى محطات فكرية أدبية، عاشتها الشخصية بوصفها جزءاً من المجتمع، تتمتع بما يتمتع به الآخرون، لا أن تكون أخباراً تسرد كما الواقع المعيش فعلاً؛ لأن نقل الأخبار والأحداث كما هي، ما هو إلا نقل للواقع والأخبار نفسها التي عاشتها شخصية الفتى، لذلك تعمد الكاتب أن يذكر أغلب ما مر بالشخصية؛ ليعطيها لوناً من روح الحياة وجمال الطبيعية المعيشة، بأسلوب أدبي هادف.

منهج البحث:

- المنهج التحليلي، من خلال التعمق في تفصيلات حياة البطل وتحليلها تحليلا جماليا، وما يحيط به من تغيرات وتقلبات عاشتها تلك الشخصية الفاعلة المتطورة، عبر بيان أوجه حياة الفتى من بدايتها، والتأكيد على بنية الشخصية وأهدافها المستقبلية، وما يرافقها من صعوبات الحياة والعيش في أغلب مراحلها، كحركتها وهي صغيرة، ثم الى وضعها العام كالطالب أثناء الدراسة، والحياة الاعتيادية.

وعلى هذا قسم البحث على ثلاثة مباحث:

جاء المبحث الأول في دراسة الشخصية المحدودة غير المنتجة، والفاعلة المنتجة، وبحسب اسقاطات صاحب السيرة على حلقة تلك الشخوص.

تلاه المبحث الثاني في دراسة المكان بصورتين، السلبية والايجابية في نظر كاتب السيرة، الذي جاء تصويره للمكان مختلفا، لا ينبع من ذات المكان بأشيائه، انما ينبع من الاحساس المسقط والمؤثث لمكان آخر يختلف من صورة لأخرى، وبحسب تصوير النفس الفاقدة لنعمة البصر.

في حين جاء المبحث الثالث؛ اتماما لما يقتضيه جمال الصورة المدروسة في المبحثين الأول والثاني، بل تتويجا واكتشافاً لتجليات الصور الجمالية للمبحثين، فكانت دراسة الصورة بجمال الفكر والنفس في كتاب الأيام، وكأن هذا المبحث جوابا لتساؤلات المبحثين، او جوابا لقارئ الأيام، بوصفه رواية أدبية من جمال الطبيعة العامة والخاصة، لا سيرة إخبارية وحسب.

اما الصورة النفسية، من خلال فكر الشخصية، فلم يُتطرق اليها كثيراً، ولذا فقد استغنى هذا البحث عن التنظير واكتفى بالتطبيق الذي رصد وحلل جماليات الصور لدى البطل، من خلال ما أضفاه من جماليات الشعور الداخلي للشخصية؛ ليصوغها جواهراً من الخارج تُمتع المتلقين.

وقد الحقت هذه الدراسة بخاتمة كتبت فيها أهم ما توصل اليه البحث من نتائج، من بعدها قائمة المصادر والمراجع التي افاد منها البحث، فضلا عن هوامش البحث.

المبحث الأول

- **مفهوم التصوير**

يعد مفهوم التصوير من المفاهيم النقدية والفنية الهامة في دراسة النصوص الأدبية، بل هو من أعمدة العناصر الفنية في معرفة النصوص وجمالياتها المتنوعة، وله فضل في كشف ملامح النص المكنونة. والتصوير مرآة تُرى من خلالها هيئة النص وشكله الذي يُفصح عن سر معانيه، ودلالاته المقصودة، البعيدة أو القريبة. فالتصوير هو كما يُرى من الصورة، والصورة هي الهيئة أو شكل الشيء الذي يراد منه الصفة والحقيقة، أو الطبيعة التي يصير اليها بأن يكون له خلق جديد ومبتكر، ومنه المصور وهو المبدع في اخراج الشيء وخلقه بهيئته أو بحلة اخرى يتم فيها[1]؛ فالتشكيل من خلال لغة البصر، أو عن طريق الوصف الطبيعي الممتد في أفق الكاتب والشاعر يكون حاملا لأدق التفاصيل الصورية والتعبيرات الرائعة في تصوير الأشياء التي من حولنا؛ لتكون حية شاخصة كأنها تتحرك مثلنا، ومفعمة بالحياة المتجددة والخيال؛ فتعطي صورة واضحة أكثر، وتعطيه جمالا أعمق؛ لذلك يقال عن النص الذي كثرت صوره وتشبيهاته الفنية، هو نص ابداعي جميل، تنوعت تصويراته المادية والمعنوية، فهو كالخلق الجديد والجميل.

تصوير الشخصية(الشخصية المحدودة غير المنتجة، والفاعلة المنتجة):

تعد الشخصية المحور الرئيس الذي تدور عليه الاحداث في كل الاعمال الأدبية الخيالية والواقعية، بل هي العنصر الأهم بين عناصر السرد؛ لأنها هي خالقة الحوار، ولها الأدوار في القص، التي تؤدي الى تطور في ابنية العمل الأدبي ضمن الفضاء الزماني والمكاني، وما يترتب عليهما من أحوال الشخصيات وما حولها.

والشخص (كائن حي له احالة ودلالة في الواقع، اما الشخصية فهي ما يحمله الشخص من تخيل وتصورعن طبيعة الشخصية والتي يناط بها دور من الادوار في القصة)[2]، فهما متلازمان ينتجان معاً واقعاً فنياً يوسع من مساحة القص والسرد، ويجعله أكثر وضوحاً؛ لذلك توصف الشخصية بأنها "عالم معقد شديد التركيب متعدد الأهواء والمذاهب والايدلوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية"[3]. وعلى هذا تنبني الشخصية في السيرة الذاتية، خاصة ضمن الاحالة الواقعية للموجود والمحسوس فعلاً ضمن الاطار الحياتي لكاتب السيرة، وتجلياته المتنوعة.

وفي كتاب (الأيام) تتعدد الشخصيات وتتنوع تنوعا كبيرا وبارزا وفق سماتها الخاصة، ووفق تصوير الكاتب لها في اطار الاحداث، وهذه الشخصيات يمكن تقسيمها إلى:

أولا: الشخصية المحددة، أو غير المنتجة(البسيطة):

هي التي لا يكون لها دور بارز كثيراً، بل هي نوع من الشخصيات المحددة الأدوار، التي تمتاز بالبساطة في مستواها وعملها النادر، ولها تسميات تمثل صفة او عاطفة وتظل مقيدة من بدأ القصة حتى نهايتها بشيء بسيط جداً من الأحداث وتفتقر لعنصر المفاجأة والتعجب،[4] وهذا لا يعني أن يكون حضورها في القصة بلا فائدة، بل لها حضور وواقع يجعل القارئ يكتشف حضورها بمجرد ظهورها في سير الاحداث. ويرى من خلالها اناسا يألفهم كأنه قد رآهم في حياته، أو تعامل معهم كشخوص حقيقيين كبعض اصدقائه ومن هم حوله، إذ يكون لها في القصة طريق للمتلقي بأن يدخل في حيزها؛ ليراقبها حتى النهاية، ويأخذ من سير حركتها ما يدل عليها.[5] وهنا تكتشف أسرار هذه الشخصية بلمسة واحدة، سريعة تدل على وجودها وان كانت محددة الوجود.

ان قارئ كتاب(الايام) يلحظ وبوضوح كثرة هذا النوع من الشخصيات المقيدة أو البسيطة بقلة إنتاجها الفعلي للأحداث، لاسيما في الجزء الاول والثاني من الكتاب، كاب الصبي، وامه، واخوته، وجده الهرم، اذ لم يكن لهؤلاء دور بكثرة يذكر في مجريات الاحداث، فكل واحد منهم ظلّ محتفظا بصورته الى نهاية مجريات القصة، فهم بقوا كما صورهم الصبي اذ كان يحس بأنواع من التعامل معه من أمه مثلا الرحمة والرأفة، ومن ابيه اللين والرفق، ومن الإخوة شيئاً من الاحتياط في حديثهم اليه وتعاملهم معه، وهو آخذ بموقف النظر والتفكير لا يحرك شيئاً غير فكره وعقله بما يرى[6]. ولكنه كان متحيراً من امه، إذ "يجد

الى جانب هذه الرحمة والرأفة .. شيئا من الاهمال احيانا، ومن الغلظة احيانا أخرى"[7]، وهذا الأمر ربما هو من أوقع هذه الشخصية البسيطة بالموقف المحدد غير المنتج للأدوار، وهو بعد طفل صغير في وقت بناء الشخصية وزيادة تحدياتها للواقع. وكان أيضاً أكثر تحرزاً واحتياطاً من اخوته واخواته؛ لأنه كان يجد في تعاملهم شيئا من الاشفاق عليه ممزوجاً بالعطف والازدراء الذي تراه هذه الشخصية ضعفاً فيها، وتماشياً مع حالتها المكسورة[8]. وبهذا تكون الشخصية قد حددت أدوارها منذ البدء بحركتها الأولى مع المحيط الذي تتحرك فيه.

أما جد الصبى ذلك الشيخ الهرم المحافظ على الصلاة الذي يقضى جزءاً كبيراً من الليل في الطاعة، ذكر الصبى عنه كثيراً من الأوراد والأدعية التي كان يتلوها ومع ذلك فقد كان الصبى لا يحبه؛ لأنه "ثقيل الظل بغيضا اليه، وكان يقضي في البيت فصل الشتاء من كل سنة".[9] فشخصية الجد اذا كانت قد صلحت ونسكت بفعل متغيرات الحياة، وما تتطلبه من التغيير للعيش مع أحوالها، فضلا عن قناعات الشخصية المتحولة بتغيير واقعها المعيش، فكانت تقوم بأدوار متنوعة، كقيام آخر الليل، واستعمال أوراد السحر وغيرها، فهي اذن شخصية لها شيء من انتاج الأحداث والتغيير في سير الرواية ومجرياتها المتنوعة، إذ هي أحست بوجوب التعامل الدقيق مع الواقع من حولها، فلا يمكن عدها ثابتة محدودة، بل لها دور في الأحداث وان كان قليلا، لكنها عملت على تطوير نفسها تماشياً مع ما يريده المجتمع من حولها. ولأنه كان مجتمعاً متصوفاً يميل لهكذا أعمال عبادية، فلابد للجد أن يسير معه، وهو بعد شيخ كبر وعركته الحياة بألوان التجارب والقصص.[10]

فذلك الشيخ الهرم كما يصوره الراوي كان بغيضا، ولعل السبب في ذلك انه صلح ونسك اضطرارا، لما توجبه مسببات الكبر والهرم، وربما كانت هذه الشخصية ذات اثر فاعل في حياة البطل، فيما سيؤول اليه وضع هذا الطفل مستقبلاً، من تصحيح لكثير من هذه العبادات والتعاملات في نظره عندما يصير طالباً، لاسيما دراسته في الأزهر فيما بعد، لكن ذلك كان له أثر في شخصيته وبنائها بالواقع العملي للصبي، وإن لم تكن عميقة الأثر فيه، إذ نلحظ أنه يسرد كل تلك الأحداث كما هي دون تغيير لها، وكأنها ماثلة أمامه حتى بعد أن يكبر، وهذا أمر يحيلنا على عدها سيرة ذاتية بحتة، يكون راويها الشخص نفسه. لذلك نرى أن(فيليب لوجون) يعد هكذا اعترافات تأتي مطابقة للواقع تماماً بأنها سير ذاتية بإقرار صاحبها كما هي.[11] وهنا الأمر ينطبق فعلاً على هذه السيرة كونها جاءت حتى بعنوانها (الأيام)، وكأنها تنقل لنا سيرة كاتب عاشها، وتنقل بمراحل حياتها مع الأيام وتقلباتها المتنوعة.

ولكن لشخصية(سيدنا) كما يسميها الصبي الأثر الاوضح على الرغم من جمودها بحركاتها المعتادة، واستمرارها على صورة واحدة من الأعمال المتعارف عليها كمهنة، فـ(سيدنا) شيخ يقوم بتحفيظ الأولاد القران الكريم في الكتاب، وهو ضخم الجثة، قبيح الصوت، حريص على المال، محبا للغناء والطعام، لا يرى الا بصيصا من نور ضئيل، ولكنه كان يخدع نفسه ويظن انه من المبصرين الذين يعرفون كل شيء.[12] فهكذا شخصيات مهما تحركت فإنها تبقى في دائرة العمل والحركة اليومية المعتادة عليها، وكأنها باقية كما هي في مكانها محددة التطور والتغيير، لا يدخلها التجديد والانتقال إلا حينما يتجدد طارئ أو يتغير وضع لتتغير.

ولعل شيء هنا يطرأ على فكر شخصية الصبي من تغير عندما يصف لنا الراوي، بأن (سيدنا) يجلس على دكة لا عالية ولا هي منخفضة كثيراً.[13] وبما أن هذا البطل قد ولد كفيفاً؟ فهناك تطور في شخصية الصبي عندما يحفظ ما كان لذلك الشيخ من مكانة، وحسن احترام؛ لأنه معلم له فضل التدريس. فالشخصية هنا أخذت تعطي وبأسلوبها المناسب لكل مقال مقام، وهذا نوع من التغيير في فكر الشخصية، وزيادة في فهم ما حولها. وهو يقع في صميم تطورها وتنوع حركتها الفكرية والواقعية مع الأحداث، وهو لا يخلو من تصوير فكري تحمله مخيلة الشخصية، بتفاصيل دقيقة.

ولم تختلف صورة (العريف) عن سيدنا كثيرا، وكأن الشخصيتين ستتقاسمان الأدوار ذاتها. إذ "لم يكن العريف أقل غرابة من سيدنا؛ كان شابا طويلا نحيفا اسودا فاحما ..."[14] فهو مثلاً لم لا يعمل الخير بلا

ثمن، ولم يفلح في عمل شيء ما إلا خربه.[15] اذن هو شخصية محددة في عملها، ثابتة بإنتاجها، معطلة بسبب فشلها أو عدم نجاحها. فهل الراوي هنا أراد شيئاً ليبينه للقارئ؟ بأن هناك من هو يشبه البطل الصغير في حركته وصده في القيام بأي شيء يريد، كما كان الطفل منزوياً ومع وجود أقرب الناس اليه، فالعريف كذلك لا يعمل شيئاً إلا وفشل به، فهو أيضاً محددٌ بما يقوم به بسبب وجود من يصده عن النجاح فيما يقوم به، وهو فشله وعدم أهليته للأشياء من حوله؟ وهذا يمثل صورة حية لما كان يشعر به الصبي في نفسه بسبب الصد والازدراء له من قبل من هم معه وبقربه. وهذا قمة في التصوير الذاتي النفسي للشخصية. "فأما العريف كان يبغض سيدنا بغضا شديدا ويزدريه، وكان سيدنا يكره العريف كرها عنيفا ويحتقره ولكنه يتملقه".[16] وهنا تصوير حي للواقع المعيش من قبل الشخصية البطلة، تلك الشخصية التي عايشت أنواعاً مختلفة من الشخصيات والأمزجة المتلونة، وكأنها تصور لنا حال المجتمع عامة، وحالتها بصورة خاصة، وما في المجتمع من غش واحتيال، وكره وتنافس. "فأما العريف كان يكره سيدنا؛ لأنه أثِرٌ غشاش كذاب ... واما سيدنا فكان يكره العريف لأنه مكار داهية، ولأنه يخفي عليه كثيرا مما ينبغي ان يعلمه، ولأنه سارق يسرق ما يوضع بين يديهما من الطعام ..."[17]. وما أجمله من تصوير فني، بمقارنات واقعية بين الشخصيات المتحركة باتجاهات مختلفة، تبعث عن مفهوم وبنية كل شخصية وما تقوم به من حركة بحسب قناعتها وأحقيتها بإدارة الأدوار واستغلالها لمصالحها. وهنا نجد وصف كتاب الأيام وهو يعالج القضايا المجتمعية من حوله بدقة وتمعن من خلال رسمه الصور والمتناقضات تصويراً حياً يلامس حياة المجتمع وبنية الأشخاص فيه وتحركاتهم؛ لأنه لا يصف العلم كما هو مكتوب، بل هو "محاولة عنيدة لتأليف صورة للعالم، صورة متماسكة دقيقة، وإن خلا من عنصر الإبصار."[18] وعليه فإن عنصر التصوير والمقاربة بين الخيال والواقع أخذا حيزاً كبيراً في فكر شخصية البطل؛ لإبراز صورة غدت طبيعية ومتجذرة في تكوين بنية المجتمع.

ومن تلك الشخصيات البسيطة المحددة التي لم تغير من نفسها شيئا كثيراً، ولم تتغير في حركتها المعتادة، ولكن في مجريات الأمور قد غيرت شخصية القاضي من صورة في ذهن البطل، كانت تلك الصورة صورة الشيخ صاحب دكة الخشب البسيطة في الكُتّاب، في حين هنا دكة مختلفة. وهي التي توضع لذلك العالم الازهري الكبير، ألا وهو (قاضي الشرع بقاف ضخمة وراء مفخمة - وهو في المحكمة لا في الكتاب، وهو يجلس على دكة مرتفعة ...).[19] وهنا حصل تحول في فكر شخصية البطل الصغير، إذ يختلف الحال بتصوير الفرق بين الدكتين، وبين الشخصيتين، من مكانة وحسن مقال وغيرهما. كذلك كانت شخصيات كثيرة مرت على البطل، بسيطة لا تعقيد فيها سوى أنها حفزت البطل وأوجدت له مجالاً في تصوير الواقع المختلف بين الدكتين، وكيف هو التعامل بين الريف والمدينة بصور مختلفة تماماً. ومن الشخصيات أيضاً وردت شخصية المفتش، ذلك الرجل الازهري المطربش، خريج مدرسة الفنون والصنائع، الذي لم يذكر إلا عمره، وعمله، والفتاة التي هي زوجته الأصغر منه سناً فقط، مع اعجابها بالصبي، وتعلق الصبي بها[20]

ومهما يكن من شيء، تبقى تلك الشخصيات وباستطراد الفقر والفصول على سجية واحدة دون ان تلعب دوراً رئيساً فعالاً بتغيير يحاول أن يغير في أطر التوقع. فهي شخصيات اعتيادية، سهلة، تمكن الكاتب من بنائها بيسر، ولمسة سريعة تخدم فكرته وما يجول بخاطره، وهي تشبه كثيرا من الشخصيات اليومية التي تمر بكثرة في حياتنا، ونتعامل معها بأهمية أقل.[21] وبخلافها الشخصية الفاعلة التي سنحاول فاعليتها وعملها فيما أسميناه بـ (الشخصية الفاعلة، المنتجة للأحداث الهامة).

ثانيا: الشخصية الفاعلة (المنتجة)

(وهي شخصية واسعة المساحة والحدث، مركبة لا يمكن أن تلخص بحدث عابر، ذات ابعاد مختلفة لها اخلاق معقدة، وتخلق بدقة وعناية، يذكر كثيراً من ظرائفها وتفاصيلها، لا يمكن توصيفها بسهولة، وابطال القصص غالبا ما تختار من هذا النوع من الشخصيات؛ لأنها قادرة على ان تفاجئ الاخرين بسلوكها، وحضورها، لها حضور بيّن في فضاء القصة؛ يزيد من عنصر الحيوية والنشاط، ويدفع القارئ الى

متابعة الأحداث والبحث عنها بأدق التفاصيل الشيّقة)[22]. اذن هي شخصية متحركة، تبحث عن الأدوار لتجسدها بما أُعطي لها من أهمية.

والشخصية الرئيسة التي يدور عليها هذا المحور الخلاق في كتاب الايام، هي شخصية (البطل) ذلك المدعو بـ(الصبي، والفتى، وصاحبنا) دائما، والمدعو بـ(طه حسين) نادرا.

تلك الشخصية التي يدور عليها مجمل الاحداث، والتي خلقت لأجل ابراز كل الشخصيات، تلك هي الشخصية الفاعلة، والمتطورة، الكاسرة لكل أفق التوقع منذ بداياتها. ولعل اول مراحل التغير في حياة البطل كانت في لحظة وفاة أخ له يبلغ الثامنة عشرة من العمر، يدرس الطب، كان جميلا رؤفا بارا عطوفا بذويه، كانت وفاته - اثر مرض الكوليرا - صدمة أثرت في مجريات حياة بطل القصة فـ"منذ ذلك اليوم تغيرت نفسية صبينا تغيرا تاما عرف الله حقا وحرص على ان يتقرب اليه بكل الوان التقرب بالصدقة حينا وبالصلاة حينا اخر وبتلاوة القرآن مرة ثالثة..."[23]. وبهذا الحدث الكبير على البطل وقعت المفاجأة التي ام يتوقعها يوماً تقع بأقرب الناس منه، وهو أخوه، فهنا يصور لنا فعل الشخصية البطلة كيف تحركت وبسرعة لتقليل الأثر على الذي فقد من تخفيف ما عليه من واجبات وعبادات هو مدين بها لله. لذلك تحرك الشخصية كان سريعاً بإقامة الأعمال اللازمة للضحية. فكان دور الشخصية الفاعلة مستشعراً ومتصوراً بمخيلته كيف "ان يتقرب اليه بكل الوان التقرب بالصدقة حينا وبالصلاة حينا اخر و ..."[24] وعلى هذا التحرك للشخصية تجلت صورة من أدق أشكال التصوير الفاعل بحركة الشخصية؛ لتغيير حال من أحوال شخصية أخرى كانت ضمن مجرى الأحداث، فانقطعت، وربما انقطعت عنها الحركة والفعل ظاهرياً، لكننا بحركة الشخصية البطلة نستشف فكرها الواضح بوجود أمل ما لنجاة تلك الشخصية المنقطعة عن الحياة الدنيا؛ لكسب ما تبقى من الحياة الأخرى.

وفي حادثة أخرى تملكت ضمير الفتى، وأشغلت فكره وأثارت حركته، وهي أمور كثيرة نحو اشخاص وبيئات مغايرة لسجل حياته السابقة، كحادثة وفاة الشيخ الامام، وهو احد اكبر شيوخ الازهر. يقول الراوي: "ولكن الفتى أحس شيئا آخر زاد به انحرافا عن الازهر، وانحرافا عن شيوخه وطلابه، احس ان الذين بكوا الشيخ صادقين، وحزنوا عليه مخلصين، لم يكونوا من اصحاب العمائم، وانما كانوا من اصحاب الطرابيش، فوجد في نفسه ميلا خفيا الى ان يقرب من اصحاب الطرابيش هؤلاء"[25] بهذا التحليل الفكري للشخصية اتجاه هذا الحدث الجديد المفاجئ، أخذت تصوراً جديداً عن الشخصيات الأخرى من حولها. فالتصور المحفوظ في ذاكرتها مثلاً وهي صغيرة، كان يقتصر على حزن وأسف ممن هم أصحاب العمائم عندما يتأسفون على فقد شيخهم، لكنه قد تشكلت في ذهنه صورة جديدة، أنه ليس هم فقط هؤلاء من يحزنون! وانما يوجد غيرهم أيضاً من يهمه هذا الأمر الكبير المفجع. وبهذا يكون البطل قد وضع تصويرين لحالة اجتماعية كانت سائدة في مجتمعه؛ ليخرج بتصور جديد يضيف الى فكره وتجربته تصويراً واقعياً من خلال التجربة الحية في حركة الشخصيات. وهذا هو الحضور الآني والحيوي لهذا النوع من الشخصية، حينما تتعامل مع الأحداث الجديدة، وتصورها من خلال فلسفتها للواقع المعيش[26]، أو عندما تصورها بدقة وتقارنها بواقعها السابق الذي مرت به وعاينته، وشاهدت كيف تتعامل تلك الشخصيات مع المجتمع، وكيف المجتمع ينظر اليها.

إن التحول الكبير في حياة الفتى جاء حين دخوله الجامعة وابتعاده عن الازهر فكرا وشخوصا. وقد صور الراوي هذا التحول في الشخصية، إذ يقول:"الفتى يخرج من حياته الأولى خروجا يوشك ان يكون تاما لولا انه يعيش بين زملائه من الازهريين والدرعميين، وطلاب مدرسة القضاء وجه النهار وشطرا من الليل، ولكن عقله قد نأى عن بيئته هذه نأيا تاما، واتصل بأساتذته أولئك اتصالا متينا، فكلهم قد عرفه وكلهم قد آثره بالحب والرفق والعطف".[27]

تتجلى لنا الصورة لدى البطل بوضوح في تصويره لتلك الشخصيات وهضمها من قبله. فلم يكن اصحاب العمائم على قدر من الثقة والوفاء، بل هم على قدر من الانانية والتخاذل، وهذه الشخصيات

بصورها تلك كانت ابعد ما يكون عن ذات البطل الذي مال لأهل الطرابيش، كما اسماهم الراوي؛ دلالة على الاتصاف بالثقافة والمعرفة، وهم أصحاب المحيط الجامعي الذي انتمى اليه البطل فكراً وروحاً.

ان تلك الشخصية (الشيخ الراحل)، وغيرها، تمثل علامة بارزة في حياة وشخصية ذلك الصبي، اذ تراكمت التحولات في شخصها ومسيرها، وحين تبدل بؤسها وفقرها الى نعيمٍ وغنى، واستحال البطل من صبي عاجز الى فتى ورجل قادر[28] "يرى نفسه انسانا من الناس، ولد كما يولدون وعاش كما يعيشون، لم يكن يأنس الى احد، ولم يكن يطمئن الى شيء، قد ضرب بينه وبين الناس حجاب ظاهره الرضى والأمن، وباطنه من قبله السخط والخوف والقلق، في صحراء موحشة لا تحدها الحدود..."[29] ففي هذا التحول نجد الشخصية من خلال تصويرها النفسي لذاتها الظاهرية، والباطنية التي تعصف بها، فهو يترجمها بمخيلته الرضا ظاهرياً، بهدوئه وسكونه المعهود، وبين السخط الباطني الي يستشعره من المحيطين به محاولاً ابراز التصبر والمجالدة لما يمر به من أحوال ومواقف بمسيرته.

ومهما يكن من شيء، فان السيرة لابد أن تخرج من ذات الشخصية الواقعية الى نوع من أنواع الأدب وتصويراته الجميلة، لأن كتابة السيرة تطورت حتى خرجت من شخصنتها الى أنواع مختلفة من أنواع الأدب المستفيضة المعبرة عن التاريخ، واليوميات، والمذكرات، والاعترافات، والقصة، والرواية وغيرها.[30] لتتصف فنيتها بمواصفات تكاد تكون شخصية ونفسية بحتة، كأنها تكتب بتاريخ البطل الأسطوري والخيالي المشابه للواقع.

ولعل من أسباب اخراج البطل من عزلته القاتمة، وقلقه الدائم واضطرابه المستمر، وظلامه الموجع، هي تلك الشخصيات الداعمة لحركته ونشاطه في الجامعة، والدراسة الجديدة، اذ غيرت في مجريات الامور تغيّرا كبيرا، أحال بطل القصة من وضع الى وضع. ولعلي استطيع ان أعد هذه الشخصيات هي الاخرى فاعلة، وكما صورها بطل القصة في حديثه مع ابنته عن نفسه وعاهته وألمه وفقره واصراره على طلب العلم، "فان سألتي كيف انتهى الى حيث هو الان، وكيف اصبح شكله مقبولا لا تقتحمه العين ولا تزدريه، وكيف استطاع ان يهيئ لك ولأخيك ما انتما فيه من حياة راضية، وكيف استطاع ان يثير في نفوس الناس من حسد وحقد وضغينة..."[31].

هذا التحول في حياة البطل كان مناطا بشخصه المركب النامي المعقد، ففي كل طور من أطوار حياته وجد العلة والدافع في التحول والتغيّير، لم يستسلم لكل ظروف القهر الذاتية والمجتمعية، واعانه في ذلك زوجه الذي بدى فاعلا قويا في تغيّر انماط من حياة البطل النفسية والبيئية.

ومن هنا فقد ركز صاحب الايام في تصوير الشخصية الفاعلة بكل خصائصها النامية، جاعلا من الشخصيات المسطحة مرآة ووسيلة لبيان شخصية البطل، فهي لم تترك اثراً في ذاتها، بل وضعت اغلبها في صورة الهامشي مقابل صورة البطل المتحولة نحو النمو مع كل موقف وحدث يمر بها. فشخصيته يمكن أن توصف الدينامية المتجددة. تلك التي تتغير خلال الأحداث وتتطور تطوراً سيعاً، وتتحول تحولا نفسيا وروحياً بما تمتلكه من وسائل الاقناع والتجربة، وسرعة الرد المباشر مع الأحداث.[32] وعليه تكون شخصية متمكنة بمختلف الظروف والمفاجآت، لا يعوقها حدث أو سبب مفاجئ، بل هي تتكيف مع مختلف الحوادث والشخصيات؛ لإبراز وجودها وامكانياتها المسيطرة على التغيرات من حولها.

المبحث الثاني

تصوير المكان السلبي ـ المكان الايجابي

يعد عنصر المكان العنصر الأبرز والفاعل في تحركات الشخصيات، فانتقال الشخصية من مكان الى آخر يصاحبه انتقال بعض الشخصيات وتعدد الأدوار مع تغير الأحداث وتطورها، فالبيئة الجديدة تغير كثيراً من ملامح الشخصيات وعملها، لأنها تعطي لها صفات مختلفة عن سابقتها. والمكان هو الحيز الذي تتحرك فيه الشخصيات لترسم ابعادها النفسية والمعنوية، وتعبر فيه عن وجهة نظرها الذاتية مع

الشخصيات الاخرى وتتفاعل به معها، لأن المكان هو الوعاء الذي يحتوي ويضم الأحداث لكي تنمو فيه وتتطور، ولا وجود لأيّ حدث أو موقف من دونه.[33] فهو يحمل دلالات كثيرة من خلال علاقات الإنسان المتنوعة، ولأنه يمثل الأبعاد الإنسانية، والنفسية الباطنية المستورة، وكذلك الأبعاد الاجتماعية والثقافية والمعرفية التي تجلبها الأمكنة لأفكار الشخصية.

وعلى هذا قد تنسجم الشخصية مع المكان وقد لا تنسجم، وربما تنسجم كرهاً ومجبورة عليه، كما في شخصية بطل الأيام، فاذا حدث نوع من انواع الانسجام؛ فان الشخصية تحيا فيه وتعيش في نوع من الالفة، وعدم الغربة، وان لم يحدث ذلك فستكون الشخصية كارهة للمكان، وينشأ نوع من التناقض. من هنا سنقسم المكان في الايام الى نوعين من الامكنة، السلبي والايجابي؛ ذلك ان طه حسين اراد توزيع الشخوص على المكان الذي استقر من وجهة نظره على ما هو عليه، بتأثير ظروف اجتماعية قهرية غالبا.[34] لذلك تنوع الأمكنة لا بد أن يصحبه تنوع في أمزجة الشخصية وسلوكها، تصوره من خلال تصرفاتها وردة فعلها تجاه الشخصيات الأخرى والامكنة.

أولاً: المكان السلبي

تكثر الأمكنة المعادية لذات الكاتب في كتاب الايام، وهذا ناتج من الظروف القهرية المنبعثة من عاهته التي لازمته منذ الطفولة لتكون الاماكن في غالبيتها مظلمة موحشة مخيفة تماما كالظلمة التي تعتري ناظريه، واول تلك الاماكن كانت "زاوية في حجرة صغيرة، تنيمه اخته على حصيرة صغيرة قد بسط عليها لحاف .. وان في نفسه لحسرات .. وكان واثقا ان كشف وجهه اثناء الليل، او اخرج احد اطرافه من اللحاف، فلا بد ان يعبث به عفريت من العفاريت الكثيرة التي كانت تعمر اقطار البيت، وتملأ ارجاءه ونواحيه .. وقد كان يخاف اشد الخوف اشخاصا يتمثلها قد وقفت على باب الحجرة .. وكان يعتقد انه ليس لديه حصن من هذه الاشباح المخوفة والاصوات المنكرة، الا ان يلتف في لحافه من الرأس الى القدم دون ان يدع بينه وبين الهواء منفذا او ثغرة".[35]

لو نظرنا للنص لوجدنا دواعي التناقض بين الشخصية والمكان ذاتية، وما تركه من أعباء ثقيلة في نفسية الشخصية من حسرات، لأنه ليس لديه حصن من هذه الاشباح، فلا يدع بينه وبين الهواء منفذا او ثغرة، فـكل دواعي الخوف الخانقة هذه ناتجة من النظرة الذاتية للمكان وللأشياء التي يحويها ذلك المكان، ولم يكن مكانه في الطور الثاني من حياته في القاهرة مختلفا عن الطور الاول في تلك الحجرة الريفية، اذ كان بيته في اعلى السلالم في حارة الوطاويط ذات الروائح المنكرة. الذي كان يدخله الى غرفة هي اشبه بالدهليز المظلم، تنتهي به الى غرفة واسعة غير مستقيمة قد تجمعت بها غرف عدة للنوم والطعام، والحديث والسمر، والقراءة والدرس، تجمع الكتب والشاي ورقائق الطعام .. وبها يجلس النهار، وبها ينام الليل، وغير ذلك من هموم البيت والدهاليز.[36] فبهذه الصور ترسم مخيلة البطل معاناته ووضعه العام الذي كانت تعيشه الشخصية البطلة من قبل. وهو تصوير ذاتي نفسي يمثل أدق تجليات الشخصية في اعترافاتها الشخصية.

وتبدو سمات هذا المكان المعادي الدهليزيّ اكثر وضوحا عند الراوي حينما يقارنه مع امكنة الطور الثالث في حياة البطل، يقول: "وكان هذا الطور احب اطوار حياته تلك اليه واثرها عنده، كان احب اليه من طوره ذاك في غرفته التي كان يشعر فيها بالغربة شعورا قاسيا، لأنه لا يعرفها ولا يعرف ما اشتملته عليه من الأثاث..."[37] بهذا التصوير السلبي للفضاء الذي عاشت به الشخصية، تتمثل صورة الألم المحكي من خلال سردها أخبار متعددة تعايشت معها الشخصية البطلة، بمكان أورثها أشد وأقسى شعور مر بها. ثم تصور لنا ما هو أكثر شدة وقساوة، حينما توضح لنا وبكلامها، واعترافها ما تجلبه الأمكنة من عناء عندما لا يوجد أنيس للإنسان وإن كبرت تلك الأمكنة واتسعت، كالقاهرة التي رحل اليها. وهنا نلحظ أنه ليس كل انسان تألف نفسه وروحه الفضاء الواسع الرحب فتستقر فيه، كلا بل فضاء النفس الباطن أهم وأدق من أي فضاء آخر بالنسبة للإنسان الطموح. لذلك نجد بطلنا عندما تحدده الأمكنة فإنه يذهب الى ما هو مضى مع الأشياء البعيدة التي كانت بنظره صعبة المنال، فالرجوع للخلف بالذكريات يعطيه قدراً أكبر

في فهم المكان وحدوده، كالسياج الذي كان بصغره يراه بعيداً وصعباً اجتيازه، لكنه اليوم يعطيه أملاً في بلوغه وبلوغ ما بعده للوصول الى الغاية المنشودة التي يطلبها بالعلم والمعرفة والتفوق على الآخرين بجهده.[38] فهو وإن سرد مجريات حياته بدقه، لكنه أراد أن يتكلم بلسانه فقط، من خلال تميز كتابته بثلاثة هي الكاتب والراوي والبطل، غير أنه أراد هنا فقط أن يبرز شخصيته هو وحده كبطل أوحد يسعى لمواجهة كمٍ من الأحداث والمواقف التي أثرت في ذاته.[39]

فشعور الغربة اتجاه الامكنة لم يكن شعورا خيالياً، انما كان شعورا نفسيا نابعا من الذات المغتربة في ذاتها، وهنا نجد غاية التصوير الذاتي الشعوري النابع من النفس الإنسانية ومخرجاتها من نتيجة تلك الأمكنة الضيقة في تحرير الذات، ولهذا نجد ان الامكنة المعادية ستصبح فيما بعد امكنة أليفة في سياقات أخرى من التذكر، وسنجد ايضا ان الاماكن التي تسبب شعورا بالاغتراب، كالسفر والارتحال، ربما ستكون اشد الاماكن الفة عند البطل، ولكن عندما تكون له مفتاحاً لبلوغ أهدافه ومراميه المنشودة؛ لأن المكان فيه كثير من المفارقات ، فالمتلقي يستعمل أفق التوقع والبحث في المكان الروائي ليصل الى قصد الراوي؛ لأن كثرة الامكنة تزيد من التوقعات ومفاجأتها.[40] وعليه يكون التكهن والتوقع لأوصاف مكان البطل لغزاً يصعب معرفة تفاصيله الدقيقة، بجمالها أو سلبيتها، وهذا أفق رحب يتركه الكاتب للمتلقي؛ للتشويق وزيادة البحث والتفحص، عن الشخصية وكوامنها الباطنية، بتصورات خيالية متنوعة.

ثانيا: المكان الايجابي

ان المكان الاليف في كتاب الايام لا يتمظهر بذاته كمكان مستقل في ذاتية البطل، بل ان الكاتب وعن طريق راوي الاحداث لا يصور المكان المتماهي مع ذات البطل الا بالمقارنة مع المكان المضاد أو المعادي، بل ان المكان الأليف يصبح موضع تساؤل، هل الصبي أحب ذلك البيت وما فيه، أو أنه أعجب بشيء ما، أو أراد اتقان القراءة وغيرها ، أو انه يغيظ من يكبره علماً؛ لأنه يريد التفوق على الجميع؟.[41] ولعله أراد أمراً آخر بأن يصل اليه ولو بعد حين، فعبر بحب المكان وألفه، قصداً منه وادراكاً لمقاصد أخرى توصله لهدفه الكبير من العلم، فصور بمخيلته ذلك المكان ورسخه، وحببه لنفسه لإدراكه الواعي بما سيصل اليه من ورائه؛ لأن التصويب الذاتي في الخطاب حتى وان كان شفوياً، فهو ادراك ووعي لمقصديات عديدة في وعي البطل.[42] وهو تجلّ يدل على سعة ثقافة الشخصية، لاسيما البطلة منها.

في حين تظهر المفارقة بين المكانين السلبي/الايجابي في تصوير الكاتب شعوره من خلال اتجاه المحيط الجامعي مقارنة بالمحيط الأزهري "كان الفتى يرى حياته في الجامعة عيدا متصلا، كما كان يراها غيره من المصريين، ولكنها كانت بالقياس اليه عيدا تختلف فيه ألوان اللذة والرضى والأمل ... وكانت هذه البيئة تتيح له كذلك علما يخلق نفسه خلقا جديدا".[43] فتكون الفكرة في مخيلة البطل تصويراً حياً لتغير نمط حياته بالكامل. فهو صور تلك المرحلة وانتقاله أجمل تصوير وبلسانه حينما يقول:" يخلق نفسه خلقا جديدا".[44] فلفظ الخلق أيضا فيه شيء من التصوير والخلق المادي. اذن هو يقتنص حتى الألفاظ في تصويراته وتغيرات حياته.

وتبقى المقارنة بين ماضي الأمكنة، وحاضرها مفتوحة في سيرة البطل، فهو لا ينسى ابدا غربته في وحشة الذات القابعة في تخوم القهر والحرمان والظلمة التي عاشها في أطوار حياته في بلده وفي ريفه، وكذلك الازهر؛ لتصبح مدينة مونبليه الفرنسية مكاناً آخر يعبق بالرضى والفرح. حينما يكون في تلك المدينة سعيداً غاية السعادة، راضيا قانعاً، لا الشقاء ولا العناء الماضيان هناك، ولا تلك الشخوص المتعبة، لا جوع ولا حرمان، بل الراحة البدنية والمعرفية حيث يحصل عليهما في تلك المدن.[45] وهنا تصور الشخصية البطلة الفضاء الأوسع لحركتها وتحقيق أهدافها وآمالها القديمة بالوصول الى العلمية، وربما العالمية، والتطلع لما هو أكثر من احلامها حين الصغر، في الغرف الضيقة المحدودة بالحارات وغيرها. فقد حقق املا لم يكن يحلم انه سيحققه في يوم من الايام، حيث كان في ذلك البأس الذي قضاه مترددا بين الازهر وحوش عطا الله وغيرهما، الى حياة عقلية نيرة لا الفقر يكتنفها، ولا عسر الحياة المعنوية، فيوازن

هنا بين حياته تلك وبين الحياة الجديدة التي اخذ يحياها في هذه تلك المدين الفرنسية الجميلة، بفضائها وأمكنتها الواسعة الخلاقة.[46]

هكذا يكسب كاتب الايام المكان طابعا تقابليا تختزنه الذاكرة في كل أطر الحياة، (موحش/جميل، جميل/موحش)، يمثلان (الضيق والسعة) اللذين مرت بهما الشخصية البطلة، فهو لا يصوره بوصفه مكانا مستقلا بأشيائه وشكله وطبيعته الترسيمية، بل يصفه دائما بطبيعة حسية مسقطة من شعوره الذاتي الداخلي اتجاه ذلك المكان وصفاته، ولعل السبب في ذلك حرمانه من نعمة الابصار التي جعلت صاحبها يقبع في الظلمة الموحشة الطويلة، وربما ما كان يحيط به من مؤثرات بيئية واجتماعية شديدة عليه، هو يستشعرها بنفسه أكثر من فقده بصره؛ ليسقطها على الاحساس بالأشياء والموجودات.

وما يستنتج من هذا خضوع المكان لتغيرات توازي التحولات الزمنية في أطوار حياة البطل جميعها، واعادة تشكيله هي استحضار لصورته المتخيلة في حيز الذاكرة، يستحيل بفضلها جزءا من معالم النص وكينونته. وتلك مهمة يضطلع بها كاتب السيرة الذاتية، مكسبا المكان وجوداً فنياً بما يفعله داخل المكان أو حوله، ليجعله بحياة نابضة تتكلم بما هو عليه من الداخل، وكلما تزيد يوميات ومذكرات الشخوص، فانه تزداد معرفتنا بهم، بفضل الخوض في كوامن أحاسيسهم وتجليات أنفسهم المخفية.[47] والبطل هنا خاض كثيرا في يومياته، وصرح بوضوح عما يختلجه من مشاعر تجاه المكان وتقلباته الموحشة والجميلة، فأفصح عن يومياته المعيشة بفنية الألفاظ وجماليتها وسهولتها؛ مصوراً حياته بأدق تفاصيل المخيلة الأدبية والنفسية.

المبحث الثالث

جماليات الصورة النفسية ـ الداخلية ـ لبطل الأيام

اعني بالصورة الداخلية هنا طبيعة الحالة، او الحالات الشعورية التي يعيشها البطل؛ نتيجة الازمات المعيشة من داخل الذات وخارجها، وما تمخضت عنه تلك الحالات من تمظهرات رافقت الشخصية واستشعرتها الى نهاية مطافها في السيرة. "فالصورة انتاج للخيال المحض."[48] فما يحيط بالنص له أثر كبير في صقل نفسية الكاتب. وأما الصورة فتكون انعكاساً منظماً لفهم النص الذي يكون البطل من ضمنه، كما يراها(باشلار)، وهي التي تكون منتجة ناطقة في النص[49] لأنه لا بد وأن يتأثر البطل مثلاً بما حوله، اجتماعياً وثقافياً، أو تماشياً مع البيئة ومتطلباتها المختلفة.

من هنا جاءت فكرة دراسة الصورة النفسية في كتاب الايام؛ بسبب ظهورها الفاعلي المؤثر والطاغي على صفحات السيرة، منذ الاسطر الأولى والى الاسطر الاخيرة من الكتاب، إذ برز لدى الشخصية التحليل النفسي الوجودي، الذي يعمل على ربط كل مدلولات الحياة بمظاهرها المختلفة، بالصور التخيلية الموجودة بفكر البطل[50]. وهو تحليل نفسي أساسي ينتقل عبر العمل الفني ويمنحه انسجاماً رصيناً.[51] فبطل القصة أصيب بعاهة جعلته يحس "ان لغيره من الناس عليه فضلا، وان اخوته واخوانه يستطيعون مالا يستطيع، وينهضون من الأمر ما لا ينهض له ... ذلك انه سمع اخوته يصفون ما لا علم له به ، فعلم انهم يرون ما لا يرى."[52]

فمن هنا ابتدأت معاناة البطل النفسية منذ شعوره الأول باختلاف الآخرين عنه، ومن هنا أخذت الامور مأخذا آخر في مجرى الاحداث داخل القصة ، ومن هنا بدأت المتاعب والمعاناة تتسلل الى شعور البطل في محاولاته لاستكشاف ما يدور حوله من الأشخاص والاشياء، بما جعل قلبه يمتلئ حياء وانكسارا لم يفارقه حتى الآن كما صرح، بل منع نفسه حتى من لذة التذوق والشبع في اطعامها ابسط انواع الطعام، كـ"الحساء والارز وكل الالوان التي تؤكل بالملاعق ، لأنه يعرف انه لا يستطيع اصطناع الملعقة ، وكان يكره ان يضحك اخوته او تبكي امه، او يعلمه ابوه في هدوء حزين، هذه الحادثة اعانته فعلا على ان يفهم حقا ما يتحدث به الرواة عن ابي العلاء."[53] ما أجلاه من شعور حين ينقله بعمق التحسس المؤلم للنفس(هدوء حزين)، (يفهم ما يُتَحدَث به عن ابي العلاء)؟.

ففعل البطل ما كان يفعله ابو العلاء تماما، فاخذ يعتزل الاخرين في كل مرة يقدم بها الطعام إليه، ولعل عدم توافر مكان خاص به في مرحلته الازهرية في القاهرة، جعل معاناته النفسية تكبر حتى تصل لدرجة الحرمان؛ خشية ان يتطلع اليه احد وهو لا يحسن تناول الطعام. ويصور لنا الكاتب هذا المشهد المنغرس في ذات البطل بما يجعل المتلقي يحس بتلك المعاناة احساسا تنطبق عليه مفردتا الشفقة والحزن أحيانا كثيرة. فهذا هو موقف الصبي على مائدة الطعام مع الحاضرين "خجل وجل مضطرب النفس مضطرب حركة اليد، لا يحسن ان يقتطع لقمته، ولا يحسن ان يغمسها في الطبق، ولا يحسن ان يبلغ بها فمه، يخيل الى نفسه ان عيون القوم جميعا تلحظه."[54] وهذا نوع من "الإحساس الحركي"[55] العضلي الذي يحس به البطل نفسياً فيترجمه عملياً؛ بسبب ضغوط نفسية داخلية وخارجية يشعربها، تكون في أغلبها خارجة عن إرادته.

وهكذا بقي البطل على عادته تلك في كل مرة يحاول فيها ان يأكل طعاما، او يقدم فيها اليه طعاما، حتى هنالك في سفره الى فرنسا بقي تلازمه بعض الصور القديمة من حياته، متمسكا ومقيدا بها، صورة نفسية شاقة ومتعبة، تغيرت مع تغير وضعه ونفسيته، عندما وجد من يكون بجانبه، وينظر اليه كما هو ينظر لنفسه، فلا حذر ولا خوف من حركاته، لأن من بقربه قرينته التي هي مرآته التي بها يرى، ليستشعر نفسه التائهة من الداخل.[56]

لم تكن مسببات عاهته الجسدية مما يمكن نسيانه، بل ان الشعور النفسي يترآى في ذات البطل مع كل حادثة تمس ذكرياته؛ لتهيج شعوره بالألم والحسرة من جديد، وكان ذلك الجرح لا يزال نديا في كل أطوار حياته، يقول :"وعلى هذا النحو فقد صبينا عينيه، أصابه الرمد فأهمل أياما، ثم دعي الحلاق فعالجه علاجا ذهب بعينيه، وعلى هذا النحو فقدت هذه الطفلة الحياة، ظلت فاترة هامدة محمومة يوما ويوما ويوما، وهي ملقاة على فراشها في ناحية من نواح الدار."[57]

فلم يكن استرجاع حادثة موت أخت البطل لتخلو من ذكر العاهة المؤرقة لصاحب السيرة في كل زمان من ازمنة حياة البطل، تلك العاهة التي صاغت الشخصية المعمقة صياغة جعلت أبسط الأشياء محرمة، فهو لا يستطيع ان يطلب كوبا من الشاي ليشارك بعض الحاضرين من حوله؛ خشية ان يرده أحد لكونه لا يستطيع شيئا، ولذلك كان ابغض شيء اليه ان يطلب الى احد شيئا، فكان من الخير ان يملك على نفسه أمرها، ويكتم كل احتياجاته ويظل قابعا في مجلسه مطرقا مغرقا في تفكيره.[58] يتكلم مع نفسه بشعور الخجل والحسرة من عدم مشاركة الآخرين لما يمرحون به من لذة طعام، أو شرب للشاي المتاح للجميع بسير إلا له. وهذا هو أيضاً نوع من الإرادة المحددة بنفسها، تلك الإرادة التي هي في حقيقتها "ما لا يتعلق الا بالمعدوم."[59] واي عدم تستشعره نفس هذه الشخصية البطلة أكثر من عدم مقدرتها باستخدام المتاح لها ولغيرها!!

ثم ان الشعور النفسي اتجاه الاشياء بسبب الظلمة التي يعيشها بطل السيرة؛ جعلت من الاحساس بالنور مقابلا موضوعيا يرد عنه الخوف والخشية من الاشياء التي يسببها الظلام، فهو يتمنى من أخيه ان يشعل مصباحا لكي تتبدد أصوات الظلمة المصاحبة لأصوات أخرى مخيفة في ذات البطل[60]، ومن هنا كان الاحساس بالنور مطمعا يبدد الاحساس النفسي بالظلمة.

وبقي البطل منكرا ليس للظلمة فقط، بل لذاته ايضا، فظلمته قابعة في ذاته، فهو "منكر لنفسه، منكر لمن حوله وما حوله."[61]

وكان ساخطا ايضا على المجتمع بكل انماطه تلك التي لا تحترم ما يعاني منه بعضهم من آفات ليس لأصحابها يد بوجودها، يقول في معرض حديثه عن الموقف الذي صادفه في الجامعة، مستعرضا ومستذكرا ما يحدث مثيله من المواقف: "وكذلك قضي على الفتى أن يستقبل طلبه للعلم في الأزهر والجامعة المصرية والجامعة الفرنسية بكلمة عن آفته تلك تؤذي نفسه وتفرض عليه ليلة ساهرة، ثم

يعرض بعد ذلك؛ لأنه لم يكن بدا مما ليس له بد، وما اكثر ما ذكر بيت ابي العلاء: وهل يأبق الانسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء"[62]

ولم تكن هذه الاحداث مصدر تراجع نفسي فقط، بل ان لعاهته الاثر الأكبر في تلقي تعليمه، تقول لنا هذه الاسطر ذلك بوضوح تام، إذ يرسم في ذهن المتلقي صورا لا تخلو من الشفقة على ذلك البطل المحزون: "فقد كان الاستاذ يرسم الحروف على اللوحة، وينطق بها، ويأخذ الطلاب بان ينطقوا بهذه الحروف كما سمعوها منه، وبان ينظروا لها مرسومة، وينقلوها فيما امامهم من الاوراق، ويظل الفتى واجما لا يرى الحروف ولا يرسمها."[63] وعليه يكون البطل وصاحب الحوار الرئيس مقيداً ومحدداً بأشياء خارجة عن قدرته البصرية، مدركاً لها بقدراته البصيرية والروحية، نتلمسها من خلال حواره الداخلي مع نفسه وفيها.

ومن هذا الطريق نجد بطل السيرة منذ طفولته يعتمد على قدرات أخرى تسعفه في العيش بنفس ضئيل، كاعتماده الصور الذهنية في محاولة منه مشاركة الاخرين في اسباب التمتع البسيط، فيشارك الاطفال في اللعب بعقله لا بيده، كذلك عرف أكثر أنواع اللعب دون ان يأخذ منها بخيط.[64] اذن هو يمتلك قدرات نفسية وفكرية - ان صح القول قدرات معنوية عقلية - أوسع من أقرانه، وحتى من اخوته ومن يحيط به؛ مما أهَّله ان يكون شخصية ذات ابعاد متنوعة، وقوية في التمييز الفكري، فاعتمد في أطوار من حياته على ما يهبه له السمع من صور سمعية يتحسسها فيقطع طريقه معتمدا على ذلك، وصور يهبها اللمس له فيتحسس أشياءه بمكابدة وعناء، ويعيش ظروفاً صعبة حتى بعد سعادته.[65]

ولم تجعل صنوف العذاب النفسية تلك من بطل السيرة الا اسما لامعا في سماء تاريخ الأدب العربي الى يومنا هذا؛ لتكون المعاناة رحما مهيئاً لخلق الإبداع، والاختلاف الى العلم والمعرفة.

والى هنا جاء هذا المبحث متمما لما سبقه، مبيناً حركية وتنامي الذات الفاعلة في السيرة على الشخوص والامكنة التي مرت بها، بكيفياتها الفكرية النفسية، والشعورية التي فرضتها الحياة على بطل السيرة منذ طفولته ومعرفته بالعلم من حوله، والى يوم كتابة الأيام، بمفارقاته المختلفة. فدلالة جمال التصوير كما ارتآها البحث في ذات فذة فاهمة، غير مبصرة بعينها، تختلف تماما عن التصوير في ذات مبصرة؛ لأن الصورة النفسية هي الحاكم الأول في توجيه مجمل الأحداث المسقطة من الذات اتجاه الاخر والاشياء، والاحساس في هكذا ذوات يكون مضاعفا بدرجات مختلفة، وعلى قدر قيمة الشخصية أو البطل في سير الأحداث وتناميها.

الخاتمة

تتلخص خاتمة هذا البحث بما يأتي:

1- لم تكن طريقة كتابة (الايام لطه حسين) سيرة ذاتية بحتة، بل هي تصوير ابداعي فني لواقع عاشته شخصية البطل وأبدعت في رسمه.
2- جاءت شخصيات الايام متناسقة من حيث ترتيبها وأعمالها المناطة بها، فلم تكن زخماً عددياً تحركها القصة كيف شاءت.
3- جعل القارئ يعيش مع مواقف البطل وأحداثه، وكأنه في طريق واحد مع البطل وفي واقعه الذي عاشه.
4- إحساس البطل بواقع الشخصية المعيش، جعل الكاتب في تصويره للشخصية الفاعلة منذ البداية ملماً بفكر الشخصية، عارفاً كيف يمنحها الجمال الإبداعي في طرح الأفكار.
5- شعور الغربة كان نابعاً من الغربة النفسية داخل البطل، لا من الامكنة التي رسمها الكاتب، التي سلطت قدرتها عليه، فجعلته يعاني ما عاناه.
6- غياب الألفة والمحبة عن الشخصية في بداية حياتها؛ جعل منها حافزاً قوياً في استنتاج الصور في مخيلة الكاتب، ومن ثم صياغتها في ضوء تحركات الشخصية البطلة، ما جعلها تبدو أكثر وضوحاً في الأحداث، وأكثر اصراراً على النجاح مستقبلاً.

7- البواعث لدى الشخصية كثيرة، أولها النفسي، وما كانت عليه الشخصية من عزلة ووحدة في تفكيرها وأسلوب حياتها، وكذلك بواعث اجتماعية وثقافية عملت على تحريك البطل بشتى الاتجاهات، وهذا ما نراه واضحاً جلياً في مجريات الأحداث في الأيام.

قائمة المصادر والمراجع

أدب السيرة الذاتية، الدكتور عبدالعزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1998م.

أدبية السيرة الذاتية في العصر الحديث، الجمهورية الجزائرية، جامعة الحاج لخضر -باتنة- قسم اللغة العربية وآدابها، أطروحة دكتوراه، إعداد الطالب: ناصر بركة، إشراف: أ.د. محمد منصوري، الجمهورية الجزائرية، 2012–2013.

ادبية السيرة الذاتية، رسالة ماجستير، ناصر بركة، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 2012-2013م.

أركان القصة، ا.م. فورستر، ترجمة: كمال عياد جاد، مراجعة: حسن محمود، د.ط، دار الكرنك–القاهرة، 1960م.

تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: 1205هـ)، مجموعة من المحققين، دار الهداية.

تصوير الشخصية في روايات خولة القزويني، بحث، انيسة خزعلي وسمية اونق، مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية وآدابها، العدد 23، 2012م.

الحبك المكاني في السياق القصصي القرآني، سورة يوسف أنموذجاً، آمنة عشاب، رسالة ماجستير، إشراف: د. عميش عبدالقادر، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف/كلية الآداب واللغات-قسم اللغة العربية وآدابها، 2006-2007م.

سيرة الغائب سيرة الآتي السيرة الذاتية في كتاب الايام لطه حسين، شكري المبخوت، دار الجنوب، 1992م.

الشخص والشخصية في القصة الغربية (دراسة سيميائية) / محمد ايوب / 2010م.

طه حسين بين السياج والمرايا، د.عبدالرشيد الصادق محمودي، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، شارع الهرم-القاهرة، ط1، 2005م.

فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي، د. عبدالمجيد البغدادي، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، باكستان، العدد الثالث والعشرون، 2016م.

فن القصة، محمد يوسف نجم، ط 5، دار الثقافة–بيروت، 1966م.

في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عبد الملك مرتاض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت، 1998.

قراءة لسيرة طه حسين الذاتية "الأيام انموذجا"، أ. دليلة زروق، جامعة الجزائر2، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، المجلد 5، العدد9، مارس 2017.

معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: ترجمة: د. سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني-بيروت، ط1، 1985م.

المعجم المفصل في الادب ، محمد التونجي ، ط2، دار الكتب العلمية – بيروت ،1999م.

معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى-بيروت، 2002م.

معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، 2002م.

معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: 395هـ)، عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ط1، 1979م.

المكان في روايات علي بدر، رسالة ماجستير، حمود ناصر حسون، جامعة فلادليفيا، 2016م.

المكان في قصص حكمت صالح : نبهان حسون السعدون، مجلة دراسات موصلية، العدد، 43، ربيع الأول 1435هـ، كانون الثاني 2014م.

---

(1) ينظر: معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: 395هـ)، عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ط1، 1979م، 320/3، تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: 1205هـ)، مجموعة من المحققين، دار الهداية، 357/12–358.

(2) الشخص والشخصية في القصة الغربية : محمد ايوب: ص3.

(3) في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عبد الملك مرتاض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب–الكويت، 1998، ص73.

(4) ينظر: تصوير الشخصية في روايات خولة القزويني : انيسة خزعلي وسمية اونق : مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية وآدابها ، العدد 23 : الصيف 1391هـ، 2012م : 24.

(5) ينظر: المصدر نفسه: 24.

(6) ينظر: الأيام: 1، 20

(7) المصدر نفسه: 1، 20، 21.

(8) ينظر: المصدر نفسه: 1، 22.

(9) المصدر نفسه: 1، 26.

(10) ينظر: المصدر نفسه: 1 ، 26.

(11) ينظر: قراءة لسيرة طه حسين الذاتية "الأيام انموذجا"، أ. دليلة زروق، جامعة الجزائر2، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، المجلد 5، العدد9، مارس 2017، 231،232.

(12) ينظر: الايام: 1 : 26 ، 27، 28.

(13) ينظر: المصدر نفسه،1، 27.

(14) المصدر نفسه، 1، 39.

(15) ينظر: المصدر نفسه، 1، 27.

(16) المصدر نفسه ، 1، 39.

(17) المصدر نفسه: 1، 40،39.

(18) طه حسين بين السياج والمرايا، د.عبدالرشيد الصادق محمودي، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، شارع الهرم–القاهرة، ط1، 2005، 14.

(19) ينظر: الأيام، 1، 75.

(20) ينظر : المصدر نفسه: 1 : 76، 77، 78.

(21) ينظر، فن القصة، محمد يوسف نجم، ط 5، دار الثقافة–بيروت، 1966، ص103.

(22) ينظر:أركان القصة، ا.م. فورستر، ترجمة: كمال عياد جاد، مراجعة: حسن محمود، د.ط، دار الكرنك–القاهرة، 1960، ص 56، تصوير الشخصية في روايات خولة القزويني، انيسة خزعلي وسمية اونق، مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية، العدد23 :الصيف 1391هـ،2012م، ص25، معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، 2002م، 114.

(23) الأيام، 1، 89.

(24) المصدر نفسه ، 1، 89.

(25) المصدر نفسه: 2 : 193.

(26) ينظر: تصوير الشخصية في روايات خولة القزويني، 25.

(27) الأيام، 5، 245.

(28) ينظر: سيرة الغائب سيرة الآتي السيرة الذاتية في كتاب الايام لطه حسين، شكري المبخوت، دار الجنوب، 1992م، ص79.

(29) الأيام، 3، 315.

(30) ينظر: فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي، د. عبدالمجيد البغدادي، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، باكستان، العدد الثالث والعشرون، 2016م، ص190.

(31) الايام : 1 : 98.

(32) ينظر: تصوير الشخصية في روايات خولة القزويني، 25، 26، 36.

(33) ينظر:الحبك المكاني في السياق القصصي القرآني، سورة يوسف أنموذجاً، آمنة عشاب، رسالة ماجستير، إشراف: د. عميش عبدالقادر، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف/كلية الآداب واللغات–قسم اللغة العربية وآدابها، 2006–2007م، 13–14، والمكان في قصص حكمت صالح : نبهان حسون السعدون، مجلة دراسات موصلية، العدد، 43، ربيع الأول 1435هـ، كانون الثاني 2014، 109.

(34) ينظر:أدبية السيرة الذاتية: 176.

(35) الايام: 1 : 14.

(36) ينظر: الايام: 2 : 102 ، 103.

(37) المصدر نفسه : 2، 109.

(38) ينظر: طه حسين بين السياج والمرايا، 13، 14، 15.

(39) ينظر: قراءة لسيرة طه حسين الذاتية، 234.

(40) ينظر: المكان في روايات علي بدر، رسالة ماجستير، حمود ناصر حسون، جامعة فلاديفيا، 2016، 11.

(41) ينظر: الايام: 1 : 79.

(42) ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: ترجمة: د. سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني–بيروت، ط1، 1985، ص138.

(43) الأيام : 3 : 243.

(44) المصدر نفسه، 4 : 243.

(45) ينظر: المصدر نفسه، 3، 285.

(46) ينظر: الأيام ، 3، ، 285، 286.

(47) ينظر : أدب السيرة الذاتية، الدكتور عبدالعزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1998، 165–167، أدبية السيرة الذاتية في العصر الحديث، الجمهورية الجزائرية، جامعة الحاج لخضر –باتنة– قسم اللغة العربية وآدابها، أطروحة دكتوراه، إعداد الطالب: ناصر بركة، إشراف: أ.د. محمد منصوري، الجمهورية الجزائرية، 2012–2013، ص167.

(48) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، 136.

(49) ينظر: المصدر نفسه، 136.

(50) ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، 77.

(51) ينظر، المصدر نفسه، 77.

(52) الايام 1، 21 .

(53) المصدر نفسه: 1، 23.

(54) المصدر نفسه: 2، 133.

(55) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، 67.

(56) ينظر الأيام، 1، 24.

(57) الأيام: 1، 82.

(58) ينظر: المصدر نفسه، 1، 24، 25، 2 : 117 ، 118.

(59) المعجم المفصل في الادب ، محمد التونجي ، ط2، دار الكتب العلمية – بيروت ،1999 ، 76.

(60) ينظر الأيام، 1، 14،15.

(61) الأيام، 3، 239.

(62) المصدر نفسه، 3، 243.

(63) المصدر نفسه، 3، 253.

(64) ينظر : المصدر نفسه: 1 : 25 .

(65) ينظر المصدر نفسه،: 1 : 23–24، و 2 : 102–103 ، 107 ، 110 ، و 3، 278، 304، 317.